رأي القدس

التعذيب في العراق يفوق كل العهود

■ لا يختلف اثنان على حقيقة ناصعة تتمثل في تدهور الاوضاع بشكل مخيف في العراق، منذ الاحتلال الامريكي قبل ثلاثة اعوام ونصف العام، ولكن ما هو مفاجيء ويستعصي على الفهم اقدام من كانوا يشتكون من الديكتاتورية ويتعاونون مع امريكا واجهزتها الامنية من اجل اسقاطها، لتخليص العراقيين من التعذيب وانتهاكات حقوق الانسان، هم الذين يمارسونهما هذه الايام وبصورة مرعبة.

بالامس اعلن مانفريد نوفاك مقرر الامم المتحدة الخاص المعني بالتعذيب والمعاملة القاسية للصحافيين في جنيف «ان الموقف في العراق فيما يتعلق بالتعذيب اصبح الآن خارجا تماما عن السيطرة» واكد «ان الوضع بلغ درجة من السوء دفعت بعض الناس الى القول انه اسوأ من عهد الرئيس السابق صدام حسين».

وجاء في التقرير الذي قدمته بعثة الامم المتحدة وصفا لحالات تعذيب تقشعر لها الابدان جرى تسجيلها اثناء زيارات لمشرحة مستشفى بغداد، حيث يتم العثور على جثث «كثيراً ما تحمل آثار تعذيب شديد، منها اصابات ناجمة عن احماض وحروق بسبب مواد كيماوية، ورقع مزالة من الجلد، وعظام مكسورة، وايد وارجل مقطوعة، وعيون مقلوعة واسنان مفقودة، وجروح ناتجة عن مثاقيب او مسامير».

لو صدرت مثل هذه الاتهامات الموثقة بالصور وشهادات الاطباء، عن لجنة تحقيق، او صحيفة او محطة تلفزيون عربية، لجرى توجيه اتهامات جاهزة لها بانها موالية للرئيس صدام حسين، وتؤيد الديكتاتورية، وهي الاتهامات التي استخدمت دائما لتكميم الاصوات التي تريد قول الحقيقة، وارهاب كل صاحب رأي مختلف.

التعذيب يمارس حاليا في العراق من قبل وزارة الداخلية، وميليشيات تابعة للتكتل الطائفي الحاكم، وكل من يحاول توجيه اصبع الاتهام الى هذه الجهات يواجه الخطف والتعذيب ومن ثم القتل، وهذا ما يفسر ارتفاع نسبة اختفاء رجال الصحافة والاعلام العراقيين.

حكام العراق الجديد يتحملون مسؤولية هذه الجرائم، لانهم حولوا العراق الى مقبرة جماعية، وفشلوا في تحقيق وعودهم للشعب العراقي بتقديم بديل نموذجي ديمقراطي يحترم حقوق الناس ويحفظ ارواحهم وكرامتهم الشخصية، ويوفر لهم الاستقرار والرخاء.

التقرير نفسه اشار الى مقتل اكثر من ستة آلاف شخص على الاقل في الشهرين الماضيين، معظمهم جرى خطفهم وتعذيبهم قبل قتلهم والقاء جثثهم في النهر او في الشوارع، ولا يوجد اي مؤشر على انخفاض هذا المعدل في الاشهر المقبلة.

ولا نعرف ما اذا كان الرئيس جورج بوش وتابعه توني بلير رئيس وزراء بريطانيا قد اطلعا على تقارير الامم المتحدة هذه ام لا، وهما اللذان ظلا يرددان دائما في كل خطاباتهما بان العراق افضل حالا مما كان عليه في السابق. انهما المسؤولان الأولان عن كل هذه المآسي، ويجب ان يقدما الى العدالة كمجرمي حرب وفي اسرع وقت ممكن.

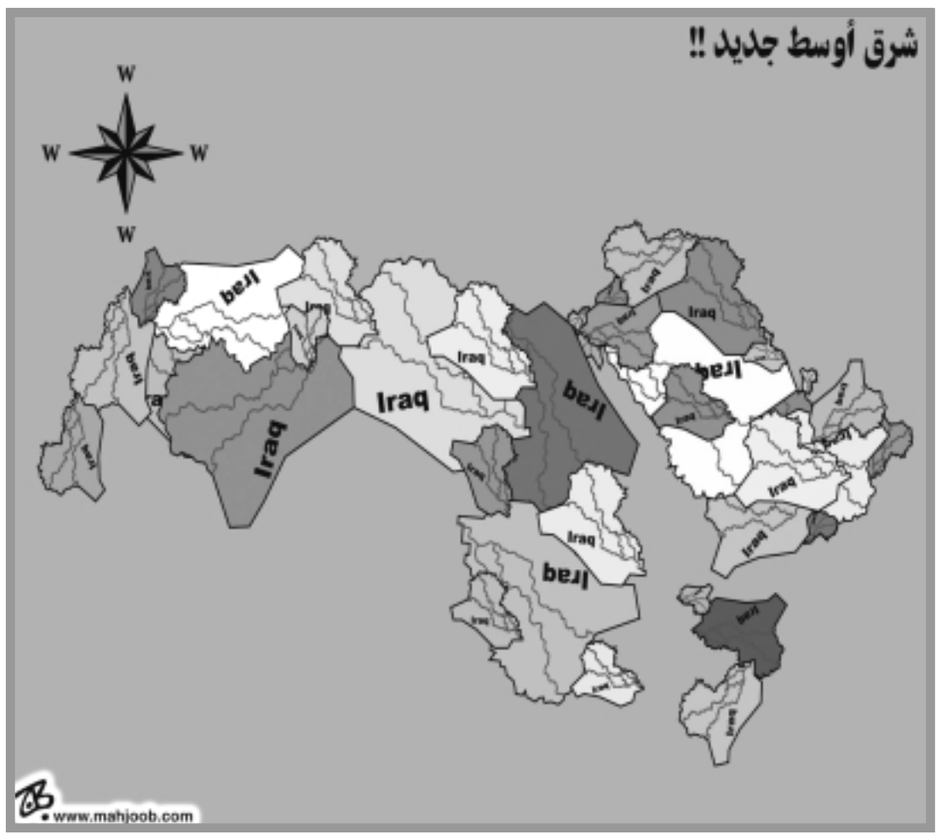

قمّة هافانا: ضحية تنحاز أم عولمة للانحياز؟

صبحي حديدي *

■ بالأمس عثرت هيلين كوبر، من صحيفة الـ«واشنطن بوست» الأمريكية، على ما ظنّت أنها مقاربة متباعدة حول غرض واحد هو كراهية الولايات المتحدة، تجمع الرئيسين الإيراني محمود أحمدي نجاد والفنزويلي هوغو شافيز، في خطابيهما أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة: الأخير تذكرة خروتشوفية لم يكن ينقصها سوى الخبط بالحذاء على الطاولة (كما فعل نيكيتا خروتشوف، الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي السوفييتي سنة 1960، في القاعة ذاتها)، وأما الأول الإيراني فقد كان سقراطي المزاج وهو يحلّل صورة الشيطان الأكبر كما تمثّله أمريكا، ويثير السؤال الفلسفي تلو الآخر حول استكبار لبقوّة العظمى.

ما فات كوبر أن تلاحظه، أو تضعه في خلفية المقارنة، أنّ الرئيسين الفنزويلي والإيراني كانا قادمين لتوّهما من المؤتمر الـ14 لدول عدم الإنحياز في هافانا، من جهة أولى؛ وأنّ أعضاء الوفود الحاضرة في قاعة الأمم المتحدة صفقت طويلاً بعد انتهاء شافيز من إلقاء كلمته، بل إن التصفيق تواصل ولم يتوقف إلا حين تدخّل موظفو الهيئة الدولية وطلبوا من الحضور إفساح المجال امام الكلمة التالية. هذه، في عبارة أخرى، وسواء أكان العداء لأمريكا خروتشوفياً أم سقراطياً، إعادة إنتاج لمناخات الحرب الباردة... مع فارق أنها لا تجري بين واشنطن وموسكو، بل بين واشنطن وأكثر من 100 عاصمة جنوبية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وليست روح النكتة وحدها هي التي جعلت ممثلي هذه العواصم يطربون لتلك النبرة اللاذعة غير المألوفة في حديث شافيز عن بوش (الشيطان الذي ما تزال رائحته، الكبريت الأصفر، تفوح في المكان!)، لأنّ ما في القلوب من مرارة ضدّ الولايات المتحدة ـ لكي لا نتحدّث عن حقد دفين، عتيق، مستديم ـ كان ينبثق من اعتبارات أكثر جدّية من أيّ تنكيت ومقارنات ساخرة، وأشدّ خطورة وأذى وعواقب بعيدة. والأرجح أنّ عدم اكتراث كوبر بخلفية قمّة هافانا لم يكن ناجماً عن تقليلها الشديد من أهمية ما أسفرت عنه فحسب، بل كذلك لأنّ الصحافة الامريكية تميل عموماً إلى ترجيح النكتة، أو النادرة أو الطرفة، على سواها من معايير انتقاء الخبر!

بيد أنّ على المرء أن لا يعتب كثيراً إزاء هذا التجاهل لمؤتمر عدم الإنحياز، وبالأحرى: عدم الاكتراث بوجود هذه الأنظمة، حتى إذا كانت كوبر صحافية أفريقية من ليبيريا، وليست أمريكية. ثمة سبب أوّل جوهري نابع من التسليم الواقعي بأنّ القمّة قادمة من عصور أخرى عابرة، وهي تبشّر بأخلاقيات طواها الدهر الراهن الذي تسود فيه العولمة أساساً (وهذه هي الصيغة المهذّبة)، وحيث الهيمنة الغربية الأمريكية ـ الأوروبية على مقدّرات العالم السياسية والإقتصادية والتكنولوجية (وهذه هي الصيغة الأقلّ تهذيباً، والأكثر أمانة لواقع الحال).

السبب الثاني المتفرّع عن هذا السبب الجوهري يشير إلى أنّ هؤلاء الزعماء الذين شاؤوا المجيء إلى هافانا (والله يعلم أنهم قادمون من كلّ فجّ عميق، بمشارب متضاربة وسياسات متباينة وأنظمة دكتاتورية وديمقراطية وعشائرية وطائفية وعائلية)، مثل الذين غابوا لأسباب شتى دون أن تغيب أنظمتهم، لا ينوون إعلان حملة صليبية ضدّ العولمة، لأنهم أصلاً لا يملكون أيّ حول أو طول لمواجهة العولمة. ورغم الخطاب الناريّ اللاهب ضدّ أمريكا، ومعظم الغرب ضمناً أو استطراداً، فإنّ جلّ ما يريده هؤلاء لا يتجاوز المطالبة بحقّ بسيط: بعض المساواة في المحاصصة الدولية لثروات العالم وثمار التسارع التكنولوجي الهائل... بعض المساواة وليس كلّ المساواة!

وإذا كان الرئيس الكوبي فيديل كاسترو قد غاب عن القمّة، أو حضر من خلال شقيقه راؤول كاسترو أو تلميذه النجيب هوغو شافيز، فإنّ فلسفته بصدد علاقات الشمال والجنوب لم تغب البتة عن جلسات القمّة، خصوصاً خطبته الافتتاحية الشهيرة أمام «قمّة الفقراء»، في هافانا ذاتها، مطلع الألفية: «لم يسبق للبشرية أن شهدت مثل هذا الإمكان العلمي والتكنولوجي، وهذه القدرة الفريدة على إنتاج الثروات والرفاه. ولكن لم يسبق أن كانت اللامساواة واللاتكافؤ على هذه الدرجة من العمق في العالم». وإذا كانت الأعاجيب التكنولوجية قد قلصت الكرة الأرضية على مستوى الإتصالات والمسافات، فإنّ هذه الأعاجيب «تتعايش اليوم مع الهوّة المتزايدة التي تفصل بين الثروة والفقر، وبين التطوّر والتخلّف».

وأمّا العولمة فإنها «حقيقة موضوعية» تضع أبناء البشرية في مركب واحد، ولكنها لا تساوي بينهم في اعتبارات الغذاء السليم والماء النقيّ والرعاية الصحية واستخدام العلوم، هذه التي تحتكرها نسبة 15 % فقط من راكبي المركب الواحد ذاته. وهكذا فإنّ المركب إياه «مبنيّ على قدر من المظالم أكبر بكثير من أن يسمح له بالطواف ومواصلة هذا الدرب اللاعقلاني وصولاً إلى مرفأ آمن». هذه العولمة لا تشيع فلسفة أخرى سوى الليبرالية الجديدة في طبعتها الوحشية، ولا تُعولم التنمية بقدر ما تعولم الفقر، و لا تحترم سيادة الأمم بقدر ما تنتهكها يومياً. وليس أدلّ على اختلال التوازن في علاقات أبناء المركب الواحد من حقيقة أنّ النموّ الدولي خلال الربع الأخير من عمر الألفية الثانية لا يرقى إلى نصف ما كان عليه بين أعوام 1945 و1975.

وثمة، أيضاً، تسليم بواحد من أشهر بنود غسيل الدماغ الطوعي في العصور الحديثة، أي ذاك الذي يقول إنّ الخطاب الخاصّ بانقسام العالم إلى 85 % من الفقراء و15 % من الأغنياء هو خطاب فائت وعتيق ومنقرض، وهو ينتهي إلى معاندة عبثية أو عبث يتوهم المقاومة. ولكن إذا كانت مفردات الخطاب قد انقرضت على مستوى اللغة القابلة للتبدّلات الدلالية والإنقلابات المفهومية، ألا يلوح وكأنّ المحتوى المادّي لهذا الخطاب ما يزال قائماً ماثلاً للعيان، بل أشدّ وطأة بما لا يُقاس بأطوار سابقة؟ ألا تقول الأرقام إنّ إسهام الدول النامية في الصادرات الدولية كان أواخر القرن العشرين أقلّ بكثير مما كان عليه في العام 1935؟ وأنّ البرازيل (بمساحة 3,2 مليون ميل مربع، وعدد سكان يبلغ 168 مليون نسمة، وصادرات بقيمة 15,1 مليار دولار) صدّرت في العام 1998 بضائع أقلّ مما صدّرت هولندا (بمساحة 21,978 ميل مربع، وعدد سكان لا يتجاوز 15,7مليون، وصادرات بقيمة 198,7 مليار دولار)؟

وغسيل الدماغ الطوعي هذا يصبّ الماء في طاحونة بعض المفكرين الغربيين الليبراليين الجدد، الذين يوحّدون العناد والعبث والمقاومة في مسمّى ذرائعي واحد هو الواقعية، ليس دون تبشير مشبوب بضرورة خضوع الإنسانية جمعاء إلى القيم الليبرالية الجديدة، التي تحمل تسمية أخرى أوضح هي «الثقافة الأمريكية». وكان طيّب الذكر دافيد روثكوف، مؤسس ورئيس المجموعة الإستخبارية Intellibridge، والمدير التنفيذي السابق لمجموعة «كيسنجر وشركاه» ومساعد وزير التجارة الأمريكي الأسبق، قد اختصر فضائل حال الخضوع ، كما يلي:

ـ تأسيساً على هذه المحاجة، يتابع روثكوف: «ينبغي أن لا يعفّ الأمريكيون عن القيام بما هو في صلب مصالحهم الإقتصادية والسياسية والأمنية، التي ليست في نهاية الأمر سوى مصالح العالم على اختلاف جغرافياته وثقافاته. وينبغي على الولايات المتحدة أن لا تتردد برهة واحدة في تعميم قيمها وأخلاقياتها. وينبغي على الأمريكيين أن لا ينسوا لحظة واحدة أن ثقافتهم، وحدها دون ثقافات جميع الأمم على امتداد تاريخ العالم، هي الأكثر عدلاً، والأكثر تسامحاً، والأكثر استعداداً لإعادة تقييم وإعادة تطوير عناصرها، والنموذج الأفضل من أجل مستقبل الإنسانية».

وهكذا، أو بعد رؤية كهذه، مَن يلوم هيلين كوبر إذا تجاهلت عجيج قمّة هافانا، لصالح نكتة شافيز أمام الهيئة العامة للأمم المتحدة؟ وبادىء ذي بدء، ألا يحقّ لسائل أن يسأل عمّا إذا كان مصطلح «عدم الإنحياز» يملك اليوم أيّ معنى ملموس؟ عدم انحياز بين مَنْ ومَنْ؟ ولصالح مَنْ بالضبط (إذْ ينبغي أن يكون هنالك ذلك الفريق الثالث الذي يصبّ موقف عدم الإنحياز لصالحه)، وأين؟ الخطوة الآمنة الأولى في التعامل مع هذا التساؤل المشروع قد تتمثّل في حصر المصطلح بين مزدوجات، بحيث تكون له مساحة دلالية مفتوحة بعض الشيء، سواء لجهة التأويل أو لجهة الإلتباس. إنه مصطلح مثله مثل سواه من المصطلحات التي فقدت الكثير من مخزونها الدلالي هذه الأيام، دون أن تنقرض أو تُسحب تماماً من التداول: «يسار»، «يمين»، «حركة تحرّر»، «ثورة»، «ثورة مضادة»، الخ...

خطوة تالية هي وضع فكرة عدم الإنحياز جانباً، ليس لأن الفكرة بحدّ ذاتها باتت نافلة مُماتة فحسب، بل أساساً لأن كتلة الدول الأعضاء تظلّ منحازة شاءت أم أبَت، بحكم ما يُناط بها من وظائف ضمن التقاسم الدقيق للأدوار في نظام العلاقات الدولية، والذي يحدث أن يُسمّى أحياناً «حوار الشمال والجنوب» من باب الكياسة، وّحوار الأغنياء والفقراء» من باب تسمية الأشياء بمسمّياتها الفعلية. لكنّ الإشكالية تظلّ قائمة: أنّ اللامنحازين ينحازون وهم في دور الضحية التي تدفع أثمان التقاسم غير العادل للأدوار والمحاصصات والثروات، وأن الحيلة قد تنطلي على الضحية فتلعب دور الضحية ظانة أنها إنما تلعب دور الشريك المشارك في صناعة نظام العلاقات الدولية، أو صناعة التاريخ ليس أقلّ!

ـ تكنولوجيا المعلوماتية، وبالأحرى انفجار تكنولوجيا المعلومات، هو أبرز مظاهر العولمة الراهنة التي يشهدها العالم بأسره. والولايات المتحدة هي سيدة هذه الثورة وصاحبة الباع الأطول في تطويرها وتصديرها. إنها تسيطر تماماً على «أوتوستراد المعلومات»، وأكثر من أي بلد آخر على الإطلاق. العالم يصغي إلى الموسيقى الأمريكية، ويشاهد التلفزات الأمريكية، ويستخدم البرامج الكومبيوترية الأمريكية، ويأكل الأطعمة الأمريكية، ويلبس الثياب الأمريكية. الأمريكيون يتحكمون في سمع وبصر وذوق ومعدة وعقل العالم. لا مناص، إذاً، من أن يتأمرك العالم: بقوة وثبات اضطراد، شاءت الإنسانية أم أبت.

ـ ثقافات العالم الأخرى لا تستطيع مقاومة هذا الغزو الأمريكي الشرعي، وحالها أشبه بحال الملك كانوت (أحد ملوك الفايكنغ في القرون الوسطى)، حين نصب عرشه أمام البحر وأمر الأمواج بالإنحسار. مطلوب بالتالي أن تستغل مختلف إدارات البيت الأبيض هذا الوضع الاستثنائي، فتترجم شعار «الولايات المتحدة بلد لا غنى عنه» إلى واقع فعلي، سياسي واقتصادي وعسكري وثقافي...

ـ لا ديمقراطية، ولا أوهام ليبرالية أيضاً، حول ضرورة إفساح المجال أمام الثقافات الوطنية لكي تترعرع وتحتفظ بهوياتها الوطنية. ولا مجال أيضاً أمام فكرة «التعددية الثقافية»، الرومانتيكية في الجوهر، المنتمية إلى عصور القوميات في الجوهر وفي الشكل، المعرقلة للمزيد من نشر وانتشار العولمة الشاملة.

ـ البديل الوحيد المتاح، بل المطلوب بإلحاح شديد، هو تعميم الثقافة الأمريكية، وحدها وحصراً. ويقول روثكوف حرفياً: «قد يجادل الكثير من المراقبين بأنه من غير المستحبّ انتهاز الفرص التي تخلقها الثورة المعلوماتية العالمية من أجل فرض الثقافة الأمريكية على الآخرين. ولكنني أجادل بأن هذا النوع من النسبوية خطير بقدر ما هو خاطىء. ذلك لأن الثقافة الأمريكية مختلفة جوهرياً عن جميع الثقافات الأصيلة في العالم، وهي جماع متجانس من المؤثرات والمقاربات الكونية، وهي منصهرة في خلاصة خاصة تتيح تطوّر الحريات الفردية والثقافات الفردية على حدّ سواء».

* كاتب وباحث سوري يقيم في باريس

حصة العراق من احداث 11 ايلول

عوني القلمجي *

■ لا يفيد كثيرا النقاش حول احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، والبحث عن الذي قام بتفجير برجي التجارة العالمي في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع في واشنطن. هل هم جماعة بن لادن؟ ام قام بها الموساد الاسرائيلي؟ او السي اي ايه لاهداف غير معلنة؟ في مقابل ان نهمل بكائيات بوش على ما حل بالشعب الامريكي من مصائب، أخلت بأمن وسمعة الولايات المتحدة اضافة الى الاف القتلى، دون ان يحمل بوش امريكا مسؤولية انتشار ظاهرة الكراهية، والمصحوبة بالعداء ضدها، جراء سياساتها العدائية سواء بدعمها المتواصل للعدوان الصهيوني على فلسطين، أو حصارها الجائر للعراق الذي راح ضحيته مليونا انسان بريء، او بدعمها لانظمة رجعية ودكتاتورية موالية لها، اضطهدت شعوبها واذاقتهم صنوف العذاب والحرمان من ابسط الحقوق ومقومات الحياة. ناهيك عن عدائها اللامحدود للاسلام والمسلمين، واستهجان ثقافتهم ودينهم، واتهامهما بالتخلف والنزوع للارهاب ضد كل ما هو حضاري. في حين مل الناس خطابات بوش حول حربه ضد الارهاب، لما تنطوي عليها من اكاذيب ومغالطات وقلب للحقائق وكيل الاتهامات، لهذه الدولة او تلك دون دليل او اثبات. وكل ذلك مصحوب بنوع من الغطرسة والعنجهية المقرفة والتهديد باشد انواع العقاب. في وقت يعلم فيه القاصي والداني بان هذه الحرب المزعومة ضد الارهاب، قد جلبت على الامم والشعوب الكوارث والولايات. وكان اكثر ما يثير الانزعاج من هذا الرئيس، هو ان الحرب على الارهاب والتي يصر على مشروعيتها وعدالتها، لم تكن سوى وسيلة غير عادلة وغير مشروعة، لتحقيق مصالح دولتين لا غير، هما امريكا والكيان الصهيوني. «العراق وتدميره وتفكيكه نموذجا».

غير ان الثابت في هذه الاحداث، هو ان المستفيد الاول منها، بوش واعضاء اليمين المحافظ الامريكي ـ الصهيوني. فهي قد منحتهم فرصة كبيرة ليضعوا موضع التنفيذ، الاستراتيجية الجديدة التي ادخلوها للبيت الابيض ساعة دخول بوش اليه. فقبلها كان التلميح بها كفيلا بان يدخل الخوف والهلع في النفوس، لما انطوت عليها من مفاهيم وشعارات غير مسبوقة في تاريخ العالم أو على الاقل، في تاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها. والاخطر ما في هذه الاستراتيجية، تلك النزعة الدموية التي يتصف بها القائمون عليها، امثال وولفيتز وبرنارد لويس صعودا الى رامسفيلد ودك شيني ووصولا الى «الرأس الكبيرة» بوش نفسه. فقد جرى تقسيم العالم الى صنفين، فالذي يوافق امريكا في كل عمل تقوم به هو معها ويستحق الثناء لكونه خيرا، ومن يخالفها فهو ضدها ويستحق العقاب لكونه شريرا، اي من ليس مع امريكا فهو ضدها. ومن هذه المفاهيم الحرب الاستباقية، والحرب الوقائية وتغير العقيدة النووية من عقيدة دفاعية الى عقيدة هجومية. بل وذهبت هذه الاستراتيجية الدموية الى ابعد من ذلك حيث اعطت امريكا لنفسها الحق بتغير الانظمة السياسية، وتجريد الشعوب من خصوصياتها وثقافاتها بالقوة، وتعديل او تغير عقائدها الدينية بما فيها اهم مقدساتها «القرآن الكريم مثلا».

يبدو وكأن احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) والاستراتيجية التي تزامنت معها، قد صممت اصلا من اجل العراق حتى تكون حصته منها، الاحتلال وتدمير دولته وحل جيشه والقضاء على مؤسساته الامنية وتحطيم بنيته التحتية وتفتيته الى اجزاء متناثرة، تحت مسميات نظام الاقاليم او الفدراليات. وهذه الحصة، كانت، على ما ظهر، ضرورية ومهمة لتحقيق المشروع الامبراطوري الامريكي. وقد اكد المعنيون بالتحولات التاريخية الكبرى هذه الحقيقة، ونسبوها للميزات الفريدة التي يتمتع به هذا البلد. فهو كما وصفه اسلاف بوش، بانه وادي الروافد الثلاثة دجلة والفرات والنفط، وهو وحده من بين الدول العربية الذي يمتلك الثروة والموارد البشرية. فدول الخليج والسعودية تمتلك الثروة لكنها لا تمتلك الموارد البشرية، في حين تمتلك مصر وسورية الموارد البشرية لكنها لا تمتلك الثروة. وهو في المحصلة النهائية المفتاح الرئيسي للسيطرة على المنطقة العربية وعلى عموم منطقة الشرق الأوسط. اضافة الى ان العراق يعد ثاني احتياط نفطي في العالم وان اخر برميل نفط سيخرج من العراق.

لا غرابة اذن ان يقرر بوش احتلال العراق قبل افغانستان. ولولا الضغوط التي تعرض لها لما تراجع بوش عن قراره، والقبول بان يكون العراق الهدف الثاني. فمن جهة ابدى حلفاؤه المقربون خشية من حدوث انشقاق في التحالف الدولي، كون العراق لم يكن له اي صلة بتلك الاحداث لا من قريب، ولا من بعيد، وان الشيخ اسامة بن لادن الذي اعلن مسؤوليته عن الحادث، يسكن في افغانستان وليس العراق. ومن جهة اخرى، فان كولن باول وزير خارجيته انذاك وهو عسكري محترف، حذر بوش من احتلال العراق اولا وبهذه السرعة. فهو قد قال ان «العراق ليس افغانستان، وان الجيش العراقي ليس جيش طالبان، وان المعارضة العراقية ضعيفة وليست مثل تحالف الشمال، وان صدام حسين لا يقارن بالملا عمر». وهذا ما تم بالفعل، فبعد ان استقر الوضع في افغانستان لصالح القوات الامريكية، بدأ العد العكسي لاحتلال العراق، بحيث بات من المتعذر عليه تجنب الاحتلال حتى لو تعلق باستار الكعبة.

ولكن هل سيتمكن بوش من تحقيق حلمه بالسيطرة على العراق والحاقه كولاية ضمن ولايات امريكا المتحدة، وتحقيق الامبراطورية المنشودة؟ ام ان بوادر هزيمته في العراق بدأت تلوح في الافق وستكون حصة امريكا من المقاومة العراقية اشد الما من حصة العراق من احداث ايلول (سبتمبر)؟

دعونا من بوش وكونه اغبى رئيس عرفته امريكا، حسب الدراسة التي اجراها اخصائيون في علم النفس من جامعة كالفورنيا، ولا يساويه في درجة غبائه سوى رئيس امريكي واحد اسمه «وورن هردينغ»، الذي امضى وقتا قصيرا في البيت الابيض في العشرينات من القرن الماضي وفشل، وان مستوى عقل بوش لا يعادل اكثر من عقل تلميذ ثانوية، فمشروع الاحتلال اهترأ وتعرى ويعاني من سكرات الموت، وما تجري حوله من محاولات لاحيائه، من تصعيد عسكري ضد المدن العراقية ومشاريع وخطط امنية ومصالحات وطنية وتقديم تنازلات لجر قوى جديدة للعملية السياسية وزيارات مفاجئة وصلت الى بوش نفسه، لينفخ ما استطاع في صورة عملاء الاحتلال لكي يتماسكوا ويصمدوا في وجه المقاومة. كل هذه المحاولات انتهت الى نفق مظلم لا ضوء في اوله ولا في اخره. وفي كل الاحوال فان اي مشروع احتلال ومهما كانت الجهة او الدولة التي تقف وراءه، لن ينجح حتى لو اجتمع لادارته الانس والجن. وشواهد التاريخ المثبتة على كل شبر من ارض العراق تحكي ملاحم العراقيين وكيف جعلوا من مدنهم مقابر للغزاة.

لا نستخف بمن يريد هو ان يستخف بالتاريخ وشواهده، ويضرب الامثال بشعوب كان لها صولات وجولات وانكفأت الى داخلها، أو انتهت الى زاوية من زوايا النسيان، هذا اذا لم يتجاوز البعض ويضع العراق وشعب العراق في متحف ما من متاحف التاريخ. وكان يمكن القبول على مضض بوجهة النظر هذه، لو اعتمدنا على التاريخ وحده واستحضار الروح الجهادية للعراقيين في الغرف او الصالونات السياسية، من دون ان نجد نموذجا حيا عنها. حيث ظهرت المقاومة العراقية مباشرة بعد دخول القوات الامريكية بغداد، وفاجأت المحتل بحجمها الكبير وكفاءتها القتالية وحسن تدريبها، وقدرتها على المناورة وخبرتها العالية في حرب المدن، ومهارتها الفائقة في استخدام مختلف انواع الاسلحة العادية والمبتكرة، ونوعية اجهزتها الامنية والاستخباراتية سواء في قدرتها على رصد قوات العدو وتحركاته، او في قدرتها على حماية نفسها. وفوق كل هذا، فالمقاومة تقاتل في ظل قيادة سياسية وعسكرية متمكنة، ومحصنة ببرنامج سياسي وطني، وبجبهة وطنية وقومية واسلامية، ويكفي شعب محاصر ومجوع ومحاط بالاعداء من كل جانب، ان يقدم للعالم مقاومة بهذه المواصفات واستطاعت ان تضع اكبر قوة عسكرية في التاريخ على ابواب الهزيمة.

نسمع احيانا من اتباع ومريدين الامريكان والذين يتمنون النجاح لمشروع الاحتلال، عن امكانات وقدرات امريكا الهائلة واللامحدودة على تحقيق غاياتها. اضافة الى وجود اسناد دولي لها، من قبل غالبية دول العالم سواء عن قناعة او خشية منها، بينما المقاومة العراقية تقاتل دون دعم مالي او عسكري، ودون اسناد عربي او دولي، وهي محصورة في غرب العراق او ما يسمى بالمثلث السني. لكن لو راقب أي من هؤلاء الاتباع والمريدين خارج اطار النظرة الدونية للذات، لوجد ان الامر غير ذلك. ويكفي ان نورد هنا بعض الشواهد. فالعديد من الدول تخلت وبالتدريج عن ركب الولايات المتحدة، وبدأت غالبية الدول تسحب قواتها من العراق بعد ان تبين لها بان حروب امريكا ضد الارهاب، ليست سوى غطاء لستر اهداف امريكية اسرائيلية دون غيرها. فشعارات بوش وحرصه على تحقيق الديمقراطية في العراق، انتهت الى حروب ومذابح وفرق موت وميليشيات وقتل المئات ورمي جثثهم على قارعة الطريق، وفي افغانستان عم الدمار والخراب، وانفصلت العاصمة كابول عن بقية المحافظات، وعادت حروب القبائل وانتشرت تجارة المخدرات التي قضت عليها حكومة طالبان. اما العالم الذي وعد بوش بان يكون اكثر امانا، فقد شهدت العديد من دوله عمليات تفجير امتدت من مدريد لتمر في لندن وتنتهي في تركيا والاردن.

في داخل امريكا فقد بوش مصداقيته واعتبر غالبية الامريكيين، ان بوش خدعهم وخاصة فيما يتعلق بالعراق. ويحاصر الحزب الديمقراطي بوش، ويطالبه بالانسحاب لتحقيق مكاسب انتخابية. وفي لغة الاحصائيات واستطلاعات الرأي، فقد ذكر فرانك نيوبورت من معهد غالوب، بان تأييد الامريكيين لبوش تراجع من 90 % عقب احداث ايلول (سبتمبر) الى 40 % ، في حين اتسعت دائرة المعارضين للحرب كونها لن تصل الى تحقيق النصر. ووصلت هذه النسبة الى 61 % . ومحطة «سي ان ان» اظهرت استطلاعاتها بان 68 % يعتقدون ان الحرب على العراق ليست جزءا من الحرب على الارهاب، في حين يرى 69 % ان الحرب كانت السبب الرئيسي لتراجع احترام العالم لامريكا.

نعم لقد كانت حصة العراق كبيرة ومؤلمة الى ابعد الحدود، لكن حصة امريكا ستكون اكبر واشد الما، فالعراق سيتحرر ويعاد بناؤه، اما امريكا فستنكفئ الى داخلها، او تواجه نهايتها كأسرع امبراطورية في التاريخ مثلما قامت كاسرع امبراطورية في التاريخ. وعندها سيكون بامكان اضعف دولة في العالم ان تقول لا لامريكا، بعد ان كانت مطالبها اوامر لا مرد منها.

* كاتب من العراق

السيد الرئيس لم يقرأ رسالتنا جيداً

د. عبدالوهاب الافندي

(1)

في نهاية خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة امتدح الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن الرسالة التي وجهت إليه من نفر من المفكرين والأكاديميين العرب (وكنت واحداً ممن شاركوا في صياغتها ومهروها بتوقيعاتهم)، ووصف من كتبها بـ«الشجعان». ولست أدري وجه الشجاعة في صياغة رسالة مفتوحة للرئيس الأمريكي تطالبه بالوفاء بتعهداته التي قطعها على نفسه بسحب الدعم عن الدكتاتورية في العالم العربي. الشجاعة الحقيقية تتأتى لو كنا وجهنا الرسالة لزعيم عربي نطالبه بذلك كما فعل بعض إخوتنا في سورية أو السعودية، فأصابهم ما أصابهم.

(2)

ليس من عادتي المشاركة في الرسائل الجماعية. وقد امتنعت في مناسبات أخرى كثيرة عن التوقيع على رسائل تدين الإرهاب أو ما إلى ذلك، لأن معظم هذه الرسائل في الغالب إما تؤكد على بديهيات لا تحتاج إلى تأكيد، أو تعطي الانطباع بالسير في زفة ما. ولا أبغض شيئاً بغضي للمشي في الزفة.

(3)

ولكن عندما طرح الأخ الصديق د. رضوان المصمودي رئيس مركز دراسات الإسلام والديمقراطية في واشنطن منذ بضعة أشهر فكرة إرسال خطاب مفتوح إلى الرئيس الأمريكي بوش تذكره بوعوده التي لم يتحقق منها شيء في دعم الديمقراطية في العالم العربي، رأيت أن الأمر يستحق الاستثناء من القاعدة التي سرت عليها حتى الآن. ذلك أنني كنت قد خلصت في تعليقي على السياسة الأمريكية الخاصة بنشر الديمقراطية في الورقة التي أعددتها لمعهد بروكينغز ونشرت في تشرين الاول (أكتوبر) الماضي إلى الانتقاد يجب أن يوجه ليس إلى فرط حماس إدارة بوش لخلق شرق أوسط جديد تسوده الديمقراطية، بل إلى كونها لم تفعل شيئاً يذكر لتنفيذ تهديداتها إياها.

(4)

بعد تداولات مكثفة حول النص المقترح، توصل الجميع إلى صيغة مرتضاة، تبدأ بتذكير الرئيس الأمريكي بتعهده الذي قطعه بدعم المدافعين عن الديمقراطية وعدم التخلي عنهم أو التماس الأعذار لمضطهديهم، وتعلن تخوفها من تراجع الولايات المتحدة عن هذه السياسة، خاصة في ظل تعالي بعض الأصوات التي تدعو إلى التريث بعد أن جاءت رياح الانتخابات في فلسطين وأماكن أخرى بما لا تشتهي السفن الأمريكية. وتقول الرسالة إن ما ظهر من تخاذل أمريكي عن دفع تلك السياسة بقوة قد يشجع الطغاة في العالم العربي ويدفعهم لمزيد من الانتهاكات كما نرى في مصر وغيرها. ولم تنس الرسالة أن تذكر سيادة الرئيس بأن المشكلة التي تواجهها السياسة الأمريكية في العراق لم تتأت لأنها سعت لنشر الديمقراطية هناك، بل بالعكس، لأن ممارساتها هناك قصرت كثيراً عن مبادئ العدل والحرية التي تنادي بها أمريكا.

(5)

بخلاف الإشادة المقتضبة برسالتنا في آخر خطاب الرئيس بوش فإنه لا توجد في بقية خطابه اي دلالة على أنه قرأ الرسالة أو فهم فحواها، بل بالعكس. فخطاب الرئيس من أوله إلى آخره دعم للطغاة والتماس الأعذار لهم، بل والإشادة بما فعلوه. فحينما يمتدح الرئيس الانتخابات البلدية في السعودية والانتخابات الرئاسية في مصر والإصلاحات العرجاء في البحرين، ويقدم هذه النماذج الشائهة على أنها تقدم على طريق الديمقراطية فإنه في الحقيقة يسخر من آلاف المناضلين الشرفاء الذين يواجهون الآلة القمعية في هذه البلدان، ويشارك أنظمتها المحاولة الفاشلة للضحك على الذقون.

(6)

إننا نتوقع أن يعترض الكثيرون على مجرد فكرة توجيه رسالة مثل هذه إلى الرئيس الأمريكي في هذا، باعتبارها تعطي مصداقية غير مستحقة للمزاعم القائلة بأن الإدارة الأمريكية جادة في نشر الديمقراطية في المنطقة. وهناك الاعتراض الآخر بأن الديمقراطية لا تستورد والحرية لا بد أن تنتزع انتزاعاً. ولكن هذه الاعتراضات تتناقض مع الاتهامات السائدة لأمريكا بأنها أساس المصائب في بلادنا، كما أن القول بأن الديمقراطية لا تستورد تستصحب ما يقوله المستشرقون بأن ما نحن فيه من عبودية واستبداد هو من صنع أيدينا، وأننا نستحق ما نحن فيه حتى نتأهل بعد قرون للحرية والديمقراطية.

(7)

ليس هناك ما هو أبعد من الحقيقة من هذا المزعم، لأن الاستبداد هو المستورد عندنا شأن كل ما يسنده، من أسلحة الشرطة وأدوات التعذيب والتصنت والغاز المسيل للدموع، وانتهاءً بعائدات النفط والمعونات التي تستخدم لشراء الذمم. الاستبداد القائم في بلادنا لا يعتمد على الخارج مادياً فقط، بل معنويا أيضاً، حيث يستمد شرعيته من دوره في خدمة مشاريع الخارج. الحكام عندنا لا يخافون الله ولا يحترمون شعوبهم، ولكنهم يرتعدون فرقاً إذا كتبت النيويورك تايمز نصف افتتاحية تفضح أفعالهم الشائنة.

(8)

لكل هذا فإننا نرى أن تحييد الإدراة الأمريكية في الصراع الدائر بين الشعوب وحكامها هو أمر في غاية الأهمية. وإن أضعف الإيمان هو أن تتخذ الإدارة الأمريكية موقفاً حازماً ضد اعتقال الناشطين المدنيين والسياسيين ودعاة حقوق الإنسان في الدول الموالية لها. ولهذا رحبنا ياعلان بوش قبل ثلاثة أعوام بأن الولايات تابت عن إثمها القديم في دعم الطغاة في بلادنا، وخاب أملنا حين لم يتبع القول بالفعل. وقد كان هدف رسالتنا هو تذكيره بذلك الالتزام والتعبير عن خيبة أملنا لأنه لم يتبع القول بالفعل. وقد جدد بوش في خطابه الأخير هذا الالتزام، ولكن يبدو أن تفسيره له ما يزال فضفاضاً، مما قد يستدعينا تدبيج رسالة أخرى له في الأس